الفصل 11

التوجُّهات المستقبلية

جولي م. نورمان ومايا كارتر هالورد Julie M. Norman and Maia Carter Hallward

انطلقنا في هذا الكتاب لكشف أسس اللاعنف، سواء بوصفه حقل دراسة أو إستراتيجية تطبيقية، فبحثنا أولًا ملامح اللاعنف، ونظرنا في مناهجه المختلفة والمتداخلة في معظم الأحيان، معترضين على الكثير من التقسيمات المفترضة بين العنف/ اللاعنف، والنهجان الإستراتيجي/ المبدئي في ممارسة المقاومة المدنية، ثم ناقشنا بعدها السياقات التي يُستخدَم فيها اللاعنف، محللين كيفية الاختلاف في مسارات حركات اللاعنف وفق هدفها ومجالها، وفي حين اعترفنا بالاستخدام الضروري للاعنف في الخصومات السياسية التي تحظى بانتشار واسع على المستوى الوطني، فقد ناقشنا أيضًا كيفية استخدامه في الحركات المستمرة على المستويين المحلي و الإقليمي؛ للتحريض من أجل الحقوق المدنية والاقتصادية أو العدالة الاجتماعية، أو لدفع قضايا لها أهمية عابرة للحدود قُدُمًا.

تبين الإستراتيجيات والمسارات المختلفة للحركات التي ناقشناها في الفصول السابقة أهمية السياق، والهيكل، والوكالة في استخدام اللاعنف وفهمه، فتوكيل الفعاليات يتيح للحركة أن تتكيف مع أوضاعها وظروفها الفريدة، مبينة أهمية النظر إلى ما وراء العوامل البنيوية في تفسير التعبئة الشعبية، إضافة إلى ذلك تؤكد الفصول تأثير الخيارات الإستراتيجية – المستخدمة في كثير من حركات اللاعنف– مباشرة في النتائج بعيدة المدى لتلك الحملات، مُوحِيَةً بوجود رابطة بين وسائل اللاعنف والغايات، حتى في حملات اللاعنف الإستراتيجية[1]، وفي النهاية تكشف الفصول إستراتيجية اللاعنف، وكيفية تعلُّم ناشطي اللاعنف من تجارب الآخرين وتكييف حركاتهم بما يجعلها تستوعب وسائل الإعلام الجديدة، وتكنولوجياتها، وأدواتها، إلا أنَّه – رغم تطور الأفكار والإستراتيجيات– لم يزل

الباحثون والناشطون يواصلون اللجوء إلى ذخائر مألوفة، ويشيرون إلى بعض الأسس الجوهرية والأمثلة التاريخية، مثل حركة الحقوق المدنية الأمريكية، وحركة مكافحة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وحملة غاندي ضدَّ السيطرة البريطانية على الهند.

المناهج، والإستراتيجيات، والتوجُّهات

أشرنا في مقدمة هذا الكتاب إلى صعوبة تعريف اللاعنف - جزئيًّا- بسبب اختلاف التعابير المستخدمة لوصف هذه الظاهرة، ولأنَّ تبني مناهج وإستراتيجيات مختلفة يعني أنه لا توجد حركتا لا عنف متشابهتان تمامًا، وقد بينت الفصول في الجزء الأول منها الملامح العامة لحركات اللاعنف، كاشفةً خطوطًا من القواسم المشتركة وسط اختلاف في الإستراتيجيات والمناهج.

أحد الدروس المستفادة من الفصول السابقة هي أن الغالبية العظمى من الحركات الناجحة لا تنطبق عليها النماذج الأولية المُفتَرَضة لثورات اللاعنف، حيث تعتمد - حتى الحركات التي تشتمل على اعتراضات واسعة النطاق وعصيان مدني- على أشكال أكثر دقَّةً من المقاومة، فتشمل تطوير مؤسسات موازية، والانخراط في أعمال تحدٍّ صغيرة، واستخدام الفن، والفكاهة، والإبداع لجذب الانتباه لقضيتهم وتغيير الرأي العام، وفي الوقت نفسه تواصل الحركات الاعتماد على العديد من الإستراتيجيات الجاذبة للانتباه، التي غالبًا ما تترافق مع الكفاح غير العنيف، مثل المسيرات، والاحتجاجات، والمظاهرات، حسب ما بيَّنته رواية سميث عن احتجاجات منظمة التجارة العالمية في سياتل عام 1999 (الفصل العاشر)، واستذكار بوبوفيتش وألفاريز للمظاهرات الحاشدة ضدَّ انتخاب مليوسفيتش المُعتَرَض عليه في العام 2000 (الفصل السادس)، ووصف أبو نمر لاحتجاجات ميدان التحرير خلال الثورة المصرية في العام 2011 (الفصل الثالث)، والواقع أن كثيرًا من الحركات تتميَّز بأحداث مثل تلك التي تسمح بحشدٍ ذي قاعدة عريضة ومشاركة واسعة، ما يسمح لها بتوسيع مجالها، وعرضها، وعدد المشاركين فيها، ومع ذلك ففي كل واحدة من هذه الحالات (وفي معظم

الحالات التي درسناها في الكتاب)، أمكن القيام بالأحداث الدرامية بقدر أقلَّ من عمليات التنظيم المنظورة، مثل تدريب الطلاب الناشطين في ناشفيل (الفصل السابع)، وأعمال ضيقة النطاق أسهمت في تطوير الأساس الجوهري للحركات، وزوَّدت المنظمين بالخبرة والمعرفة الجيدة.

حركات اللاعنف المستمرة التي تمتدُّ إلى ما هو أبعد من بضع احتجاجات أو مظاهرات، غالبًا ما تطور مؤسسات تعمل بوصفها بدائل موازية للدولة أو السلطة القمعية، وفي حالات أخرى قد تعمل الحركات - جزئيًّا على الأقل- من خلال المؤسسات القائمة مثل الشبكات الدينية، كما ظهر من تعاون بعض الكنائس التقدُّمية في الجنوب الأمريكي خلال حركة الحقوق المدنية (كلارك وكوي، الفصل السابع)، وفي تشيلي خلال الصراع ضد بينوشيه خلال عقد الثمانينيات (كلارك، الفصل الرابع)، وفي البرازيل في السنوات المبكرة من حركة العمال الريفيين بلا أرض (شوك، الفصل التاسع)، ومثل ذلك - حسب ما بيَّن أبو نمر (الفصل الثالث)- استخدم كثير من الناشطين في مصر والدول العربية الأخرى التي شهدت انتفاضات في العام 2011، المساجد بوصفها مواقع رئيسة للتنظيم، ويؤكد هذا الاستخدام لمؤسسات قائمة ما توصَّل إليه باحثون في اللاعنف؛ بأن وجود فضاء يمكن ممارسة التنظيم فيه عنصر ضروري للنجاح (نبستاد 2011) (Nepstad 2011a).

على أي حال، فالأمر الأهم هو أن حركات اللاعنف تميل لأن تكون أقوى إذا ما طورت مؤسساتها البديلة، ومثال ذلك أنَّ مصر شهدت اعتراضات حاشدة فتعاون الناشطون مع الشبكات القائمة، لكنَّهم شكَّلوا أيضًا (لجانًا شعبية) بعناصر مثل عيادة، وروضة أطفال، ومراكز إعلامية، وأكشاك طعام، ومحطات مياه، وشكَّل المواطنون دوائر جمارك (لوقف تدفق السلاح إلى الميدان)، وداخلية (للتثبُّت من الهويات ومنع التسلل)، والدفاع (لإقامة المتاريس وحماية المحتجين)، وبنية تحتية (لتوفير الوقود والكهرباء لميدان التحرير)، وقد طورت حركات أخرى مؤسسات بشكل تدريجي استغرق وقتًا أطول، مثل تأسيس نقابات العمال ومجالس حقوق الإنسان التي سبقت الإضرابات واسعة النطاق في بولندا في عَقْد

الثمانينيات حسب ما ذكر بارتكوفسكي في الفصل التاسع، وتطوير حكومات للبلديات، ونظام محاكم، وخدمات اجتماعية من قبل سكان المدن الخاصة بالسود في جنوب أفريقيا حسب ما ذكر زونس في الفصل الخامس، وإلى عهد قريب ما تحدث عنه سميث في الفصل العاشر، الحركات العابرة للحدود مثل المنتدى الاجتماعي العالمي، و (لا فيا كامبسينا) التي عملت من أجل تطوير مؤسسات اقتصادية بديلة، عدا حركات أخرى استغلَّت المعدلات العالية من الاعتقالات السياسية لاستخدام السجون بوصفها مواقع للتنظيم، مثل سجناء إيرلندا الشمالية، وفلسطين، وبورما، الذين طوَّروا مؤسسات معارضة للنظام ونسَّقوا التثقيف السياسي داخل السجون.

في جميع تلك الأمثلة، ما كان مجرد حلقة معزولة من الاحتجاجات نَـمَا ليصبح حركات دائمة، والفضل الأكبر في ذلك تطوير أُطُر العمل وتوفير بدائل للهياكل القائمة، ووفق ذلك فإن هذه الحركات لا تعبر فقط عن عدم رضاها عن الحقائق المسيطرة، بل تقدم أيضًا رؤية بديلة، وتكون بذلك حركات تسعى لإقامة شيء ملموس وعملي بدلًا من أن تكون مجرد حركة ضدَّ الوضع القائم.

إنَّ تطوير مؤسسات بديلة يوازي أيضًا استخدام أشكال المقاومة ضيقة النطاق أو السرية، ففي الفصل الرابع – على سبيل المثال– شرح كلارك كيف بدأت المرأة التشيلية في دوائر الخياطة بتوثيق تجاربها في صنع السجاد، الذي كان يُهرَّب إلى الخارج ويُوزَّع ويُباع، الأمر الذي كان يوفر بعض الدخل ويرفع مستوى الوعي السياسي، وفي الصحراء الغربية – حسب ما وثَّق زونس في الفصل الخامس– نشر الناشطون العلم الصحراوي في الساحات العامة، واستخدموا الكتابة على الجدران، أو احتفلوا بالأعياد الثقافية أو الدينية مع إشارات سياسية، وفي الفصل الثامن ناقش بارتكوفسكي أشكالًا أخرى من المقاومة ضيقة النطاق، مثل ما حدث في روسيا والصين حين قام ناشطون بنزهات في أماكن عامة؛ لتحدي منع السلطات للتجمعات العامة.

ويمكن لأعمال المقاومة ضيقة النطاق أن تستخدم الفكاهة لأغراض فاعلة؛ بهدف جذب انتباه الجمهور وتوضيح نقطة سياسية أكثر أهمية، ففي الفصل السادس يروي بوبوفيتش وألفاريز كيف استخدم ناشطو (أوتبور!) الفكاهة في إستراتيجيتهم برسم وجه ميلوسيفيتش على برميل ودعوة المارة إلى ضرب البرميل بمضرب بيسبول، ومثل ذلك في الفصل الثامن حين شرح بارتكوفسكي كيف يمكن للناشطين استخدام الفكاهة للالتفاف على النظام، أو على الأقل لكشف سخافته، كما حدث حين جمع الناشطون في صربيا شخصيات من ألعاب اللوجو ودُمى كرتونية تحمل يافطات تعترض فيها على الانتخابات المُزوَّرة، فتجنَّبوا بذلك التعرُّض للاعتقال مُجبِرين الشرطة المحلية على القدوم واعتقال الدُّمى أو إزالتها.

إنَّ استخدام أسلوب الفكاهة يجذب وسائل الإعلام أيضًا، ففي حين قام بوبوفيتش وألفاريز بمناقشة استخدام وسائل الإعلام بتوسع في الفصل السادس، اتَّضح أن جميع حركات اللاعنف الناجحة يتزايد استغلالها لوسائل الإعلام لتنظم نفسها داخليًّا ولتصدير أخبار الحركة إلى العالم الخارجي، وبينما ينبهنا كل من بوبوفيتش وألفاريز لضرورة تجنب المبالغة في تأكيد دور وسائل الإعلام في تقرير نجاح حركات اللاعنف، فمن الواضح أن وسائل الإعلام والأدوات التكنولوجية قد استخدمت على مدى التاريخ في حملات اللاعنف، ابتداءً من نشر الدعايات إلى الصور القاسية التي تفضح قمع رجال الشرطة لحركة الحقوق المدنية الأمريكية (كلارك وكوي، الفصل السابع) (Clark & Coy, chapter 7)، إلى استخدام تويتر لتصدير الأخبار من الدول خلال الانتفاضات العربية حين كان هناك تعتيم على مصادر الأخبار التقليدية، وقد ناقش بوبوفيتش وألفاريز أيضًا كيف يمكن للهواتف المحمولة أن تدعم الطبيعة الأفقية اللامركزية لكثير من حركات اللاعنف الحالية، الأمر الذي يزيد من صعوبة تعرُّف السلطات إلى قادة الحركة واعتقالهم في الحركات ذات البنية العمودية، أمَّا وسائل التواصل الاجتماعي فهي تزيد إمكانية التواصل والتنظيم بين الحركات العابرة للحدود (سميث، الفصل العاشر) (Smith, chapter 10).

إنَّ استخدام وصلات وسائل الإعلام التقليدية والاجتماعية يُمكِّن الحركات من مناشدة المجتمع الدولي لتقديم المساعدة، وفي حين قد تسعى بعض الحركات للحصول على التضامن من خلال الشبكات الأفقية وأعمال المواطنين، فقد تسعى أخرى إلى طلب المساعدة من دول أخرى للضغط على النظام من خلال حوافز أو عقوبات دبلوماسية، وحسب ما بيَّن زونس في الفصل الخامس، فإن الدول الصناعية المتقدمة غالبًا ما تدعم الأساليب وجيوش الاحتلال، ويضغط الناشطون على الحكومات كي تسحب دعمها، حسب ما يتضح من حركة (المقاطعة، وسحب الاستثمارات، وفرض العقوبات) (بي دي أس) في جنوب أفريقيا، ويمكن لهذه الأمور إضعاف تلك الأنظمة بشدة، وفي حالات أخرى يمكن لحركة (بي دي أس) أن تكون مؤثرة بجذب انتباه العالم لقضية ما، حسب ما هو واضح من حملات التضامن الفلسطينية التي تدعو إلى سحب الاستثمارات من شركات أو مؤسسات ترى أنها تديم الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أنَّه – حسب زونس– يجب عدم النظر إلى الضغط من المجتمع المدني العالمي على أنه يُقوِّض توكيل الناشطين في الداخل، بل على أنَّه مُكمِّلٌ ووسيلةٌ مُوازِيةٌ في السَّعي إلى التغيير، وينظر سميث (الفصل العاشر) بتعمق أكثر إلى العلاقة بين الناشطين المحليين والمجتمع المدني العالمي، دارسًا كيف أن بعض الحركات العابرة للحدود تعمل أفقيًّا لاستهداف الدول الصناعية في قضايا تشمل المساواة السياسية، وتغير المناخ، وحقوق العمال.

النفوذ الدولي هو مجرد واحد من عوامل عديدة تسهم في مدى التزام الحركات باللاعنف، وحسب ما أشار سميث (الفصل العاشر) فإنَّ بعض الحركات لا تُعرِّف عن نفسها صراحة بأنها غير عنيفة، إلا أنها بتبنِّيها لإستراتيجيات تسعى لزيادة المشاركة الشعبية إلى أقصى حدٍّ ممكن والتقليل من الإصابات، تعمل حسب هذا النهج، وبخلاف ذلك فإن حركة الحقوق المدنية – حسب وصف كلارك وكوي في الفصل السابع، قصدت أن تصف نفسها بأنها غير عنيفة، مع تدريب الناشطين لديها على تحمُّل الإهانة، وسوء المعاملة، والاعتقال من دون أن يردُّوا بعنف، ولم تزل هناك حركات مثل حركة مناهضة الفصل العنصري، والحركة المستمرة لاستقلال الصحراء الغربية، تبين إمكانية وكيفية تحوُّل الحملات من

الاعتماد على الكفاح المسلح في البداية إلى اتباع الإستراتيجيات غير المسلحة لأسباب إستراتيجية، مع عدم نبذها العنف بشكل مباشر، وحسب ما ناقش زونس، يبين هذا النوع من الحركات ضرورة تحدي الافتراض القائل بضرورة وجود فاصل واضح بين (اللاعنف) و(العنف)، والواقع أن عددًا ممَّن شاركوا في وضع هذا الكتاب، وعددًا من الناشطين يفضلون في دراسة الحالات التي ناقشوها استخدام عبارة (النضال الشعبي) أو (المقاومة المدنية)؛ للإشارة إلى الذين يعتمدون بداية على الوسائل غير المسلحة، وتسعى هذه المصطلحات إلى وضع (اللاعنف) ضمن إطار وصف إيجابي لما هو عليه بدلًا من الاعتماد على وصف يعتمد على الإشارة إلى ما ليس فيه.

وإنَّ من الصعب تصنيف حركة ما بأنها (لا عنيفة) محضة أو (عنيفة) محضة، فإن الفصول السابقة تشير أيضًا إلى صعوبة محاولة التمييز بين النهج المبدئي بالكامل والنهج الإستراتيجي بالكامل، فالمناهج المبدئية غالبًا ما تترافق مع إيمان ديني أو معتقدات روحية، رغم أن الزعماء، والمؤسسات، والشبكات الدينية غالبًا ما تؤدي دورًا رئيسًا في الحركات، التي هي علمانية في غالبيتها، وتدعو إلى اللاعنف بوصفه إستراتيجية، ففي الفصل الثالث يكشف أبو نمر دور الدين في الثورة المصرية، مُشيرًا – على سبيل المثال- إلى الطريقة التي استخدمت فيها المساجد بوصفها مواقع للحشد الجماهيري، رغم أن الحركة لم تكن دينية في طبيعتها، ومثل ذلك أنَّ حركة (لاهوت التحرير) دعمت مجموعة من الحركات الاجتماعية غير الدينية التي ظهرت في أمريكا اللاتينية، مثل (حركة العمال الريفيين بلا أرض) (شوك، الفصل التاسع)، و(لا فيا كامبسينا) (سميث الفصل العاشر)، حتى غاندي الذي يعد غالبًا أنه مثال اللاعنف المعتمد على دوافع مبدئية أو روحية، أدرك الأهمية الإستراتيجية لهذا النهج، وشارك في أعمال لاعنف ذات أهداف سياسية أكثر من كونها أهدافًا روحية وحسب.

لذلك فإن فصول هذا الكتاب تتحدَّانا أن نعيد التفكير في التمييز التقليدي بين (إما/ أو)، وأن ندرك بدلًا من ذلك كيف تُولِّد الحركات ضغطًا مُثيرًا للجدل من أجل التغيير،

فالحركات متغيرة؛ تتكيف مع تقييمات القوة المتغيرة، وتستخدم أساليب ولغات متنوعة، وتتحدى النظم المسيطرة، وتطور مجتمعات أكثر مساواة وعلاقات أكثر عدالة.

التطبيقات، والقضايا، والمسارات

استخدمت إستراتيجية وأساليب اللاعنف في تشكيلة واسعة من السياقات التي امتدت زمنيًّا ومكانيًّا، إلا أن حركات اللاعنف غالبًا ما تختلف في شكلها اعتمادًا على المستوى الذي تعمل فيه (محلي، أو وطني، أو إقليمي، و/ أو عالمي)، وعلى أهدافها ومراميها (الإصلاح، أو الثورة، و/ أو التحول)، وكي تكون ناجحة، فإنه ينبغي على الحركات أن تستغلَّ و/ أو تردَّ على سياقات محلية محددة، فالإستراتيجية التي تصلح لحملة ما قد لا تكون فاعلة في حملة أخرى، سواء كان ذلك لأسباب ثقافية، أو سياسية، أو تنظيمية، وتَبَعًا لذلك فإن حركات اللاعنف تتَّخذ أشكالًا مختلفة.

ينبغي على الناشطين والمنظمين أن يتنبَّهوا للبيئة التي يعملون فيها، لا أن يكتفوا بقياس العوائق المحتملة، بل أن يتعرَّفوا أيضًا إلى الفرص الممكنة، ففي الفصل السابع – على سبيل المثال– يستغل كل من كلارك وكوي نموذج أعمدة الدعم لبيان كيف أن الناشطين في ناشفيل كانوا قادرين على اكتساب النفوذ من خلال المؤسسات المحلية، مثل الكنائس، والصحافة، ومكتب المحافظ المعتدل، والممثلين السود في مجلس المدينة، ودوائر الشرطة والمطافئ، في حين أن ناشطي اللاعنف يستخدمون هذا النموذج غالبًا للتعرُّف إلى الأركان التي يتعيَّن عليهم ضربها وإسقاطها، لكن كلارك وكوي يستخدمانه هنا لمناقشة كيف أن الحركات يمكنها التعرُّف إلى مصادر القوة والدعم في بيئتها.

وفي الفصل الثامن يحذرنا بارتكوفسكي من المبالغة في تأكيد نهج (هياكل الفرصة) الخارجية في التنظيم، مُقترِحًا نهجًا أكثر توجُّهًا للوكيل يكشف كيف يمكن للناشطين إيجاد الفرص في بيئة سياسية مُقيَّدة للغاية، وتبين دراسات الحالة في الفصلَيْن السابع والثامن الفرق بين الكفاح اللاعنيف للدفع من أجل الإصلاح والتغيير في نظام سياسي محلي من

جهة، وبين من يَسعَوْن إلى تغيير الحكومة أو النظام السياسي الحاكم بالكامل من خلال الثورة من جهة أخرى، وفي هذه المجموعة من الأمثلة أتاح وجود مؤسسات ديموقراطية (رغم أنها مُعِيبة) لطلاب ناشفيل أن يدفعوا في اتجاه الإصلاح، في حين سعى الناشطون في بولندا مثل ناشطي مصر (الفصل الثالث) وصربيا (الفصل السادس) إلى استبدال نظام الحكم السلطوي لديهم، وبسبب هذه الأهداف المختلفة، يستخدم الناشطون طرق حشد متباينة، ويصوغون رسالته في ذهنهم مع أهداف ومتابعين مختلفين.

يبين الفصلان التاسع والعاشر كيف أن اللاعنف لا يتعلق فقط بالقضايا السياسية، بل بالمظالم الاقتصادية أيضًا، وحسب ما يبين شوك في الفصل التاسع، فإن الكثير من الأدبيات التي تتناول المقاومة المدنية تركز على الحركات المؤيدة للديموقراطية، ولذلك فإن استخدام اللاعنف يمتدُّ أيضًا إلى الحركات التي تعارض العنف الهيكلي، ويذكرنا شوك بأن غاندي شدَّد على الحقوق الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب الحقوق المدنية والسياسية، وهو ما فعله قادة الحقوق المدنية أمثال مارتن لوثر كينج الابن (Martin Luther King, Jr)، والحركات التي تعارض عدم المساواة والاستغلال الاقتصادي غالبًا ما تظهر في الأماكن الريفية أكثر من المدنية، وتميل لأن يكون لها مسارات زمنية أطول من معظم الثورات السياسية حسب طبيعة التغيير المطلوب، وغالبًا ما تفتقر إلى الذروة الدرامية الظاهرة التي هي من صفات الثورات السياسية، وبدلًا من ذلك تركز تلك الحركات على الحصول التدريجي على حقوق العمال، وعلى تطبيق طويل الأمد لممارسات التنمية المستدامة.

وحين تتشكَّل بعض حركات المقاومة الريفية على المستوى المحلي، وتركز على ضمان حقوق أو مطالبة بإصلاح ضمن الولاية أو الدولة، فإن حركات اقتصادية أخرى تعمل على مستوى عابر للحدود، وتسعى لتغيير أنظمة مؤسسية أوسع، وحسب ما يبين سميث في الفصل العاشر، فإن الحركات العابرة للحدود تعكس تآزرًا بين الكفاح المحلي والتنظيم العالمي، مع قضايا (تكون غالبًا) من مناطق ريفية في الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، يتم التعبير عنها باحتجاجات واسعة النطاق في المناطق المدنية من الدول الصناعية، مثل معركة سياتل في

العام 1999، واحتجاجات العشرين الكبار في تورنتو في العام 2010، إلا أنه - حسب ما أشار سميث- رغم الطبيعة الأفقية لمعظم الحركات المرتبطة ببعضها بشبكات عابرة الحدود، فإن من الصعوبة بمكان الحفاظ على إستراتيجية متماسكة بين المجموعات العاملة في دول وبيئات مختلفة، وكذلك الأمر بالنسبة لمدى التزام المجموعة ككل باللاعنف، يشرح سميث كيف أن بعض المجموعات قد لا تُعرِّف عن نفسها صراحة بأنها غير عنيفة، ولكن بموجب روح السياسة المُتخيَّلة مسبقًا (ربط الوسيلة بالغاية)، فإنها لم تزل تعتمد على أساليب اللاعنف بشكل أساسي، وبالتالي فإن سميث يردد في فصله صدى بعض المواضيع التي أثارها أبو نمر وكلارك؛ من ناحية التفكير في التداخل الحاصل بين النهجَيْن المبدئي والبرغماتي في اللاعنف، ويعكس في الوقت نفسه مناقشة زونس لصراع الناشطين في التفاوض بين العنف واللاعنف، إضافة إلى أن تاريخ الاستعمار، والاستعمار الجديد، والتفاوت في القوة بين الناشطين وبين الدول، بين شمال الكرة الأرضية وجنوبها، يُعقِّدان شروط الحوار وإطار الإستراتيجية التي يستخدمها منظمو الحركة في مختلف البيئات[2].

أفكار مُعمَّقة

بناءً على ما أشرنا إليه أعلاه، فإنَّ الأفكار والأمثلة في قسم الملامح والسياقات من هذا الكتاب تُكمِّل بعضها بعضًا، لتقدم عرضًا دقيقًا عن اللاعنف، وعددًا من الأفكار المهمة الأخرى، ولذلك:

أولًا: جميع الفصول تدفع في اتجاه تحدي التقسيم المفترض بين العنف/ اللاعنف، والنَّهجَيْن الإستراتيجي/ البرغماتي، والأهداف الإصلاحية/ الثورية، والمظالم السياسية/ الاقتصادية، والمستويَيْن العالمي/ المحلي في التنظيم، ويبين الكتاب من خلال مختلف دراسات الحالة أن الخطوط بين تلك الفئات هي في الحقيقة غير واضحة تمامًا، وأن معظم الحركات تعمل بين القطبين الواضحين، وتميل أحيانًا إلى هذا القطب أو ذاك في أثناء تكيُّفها مع مختلف الظروف، وبالنظر إلى الطبيعة الأفقية لمعظم تنظيمات اللاعنف، ودخول

الأفراد والمجموعات في الحركة حاملين أفكارًا، وآراءً، وأهدافًا مختلفة، فإنَّها يمكن أن تتمخَّض عن تباين ملحوظ في التأكيدات أو وجهات النظر حتى ضمن الحركة الواحدة.

ثانيًا: تشدد جميع الفصول تقريبًا على الوكالة الفردية والجماعية للناشطين، فحين أشار الكُتَّاب إلى الظروف الهيكلية التي توفر فرصًا (أو قيودًا) للحركات، فقد أكدوا أيضًا أن الظروف الهيكلية وحدها لا تُنشئ حركة أو تؤسس مسارًا، بل إن الناشطين هم من ينتهزون الفرصة أو يختلقونها للنضال، وهم مسؤولون عن تحديد شكل الحركة، ولاسيَّما مدى ما تُبديه من انضباط غير عنيف، وفي الوقت نفسه، وحيث إن معظم الحركات التي تمَّت مناقشتها هنا تعمل من خلال شبكات أفقية أكثر ممَّا تعمل وفق تنظيم هرمي عمودي مع شخصية رئيسة أو قادة واضحين، فقد يكون من الصعب بلورة إستراتيجية واضحة أو الحفاظ عليها وفرض الانصياع للاعنف.

ثالثًا: حسب ما أشرنا إليه في مواقع مختلفة من الفصول، يرى الناشطون العلاقة الواضحة بين استخدام وسائل اللاعنف وتحقيق نتائج سلمية وعادلة، ويؤكدون أن الهياكل التنظيمية الأفقية مثالية لحملات اللاعنف؛ كونها تساعد على تصور شكل المؤسسات الديموقراطية مسبقًا، وقد استغلَّ الناشطون اللاعنف منذ حملات غاندي المبكرة إلى حركات العدالة العالمية الحديثة، ليس كإستراتيجية قصيرة الأمد، أو معتقدات دينية، أو لكسب التضامن وحسب، بل لأنهم يؤمنون أيضًا بأن الحركة يجب أن تعكس نوع المجتمع الذي يأملون في بنائه، فهذه الفكرة ليست مجرد مثالية ناشطين، حيث تبين الأسبقيات التاريخية أن فرص حركات اللاعنف في تحقيق تحول سلمي، وحكومات أكثر استقرارًا، وإصلاح مستدام تبدو أكبر.

التطلُّع قُدُمًا

سيواصل حقل (اللا عنف) تطوره وتوسعه مع مواصلة حصول استخدام المقاومة المدنية على الاعتراف والتوثيق، وقد تعرَّفنا في هذا الكتاب إلى أساليب مبتكرة ستكون – من

دون شك- مصدر معلومات للدراسات والممارسات المستقبلية في اللاعنف، ولاسيَّما تلك التي تشتمل على وسائل الإعلام والتكنولوجيات الجديدة، وتلك الأدوات لا تغير بالضرورة الأسس الجوهرية للكفاح غير العنيف، لكنَّها تؤثر في إستراتيجياته. وحسب ما يبين الكتاب، فإننا نشهد أيضًا زيادة في توثيق (الأعمال الخلاقة) التي تشمل الفكاهة و/ أو الفنون لإيصال رسالة سياسية، فهذا الاستخدام للفكاهة في الاحتجاج - وبوجه خاص عند إيصاله أو نشره على وسائل الإعلام الحديثة- سيُشكِّلُ أحد مجالات الاهتمام المحتملة بالنسبة للباحثين والناشطين في السنوات المقبلة.

يبين هذا الكتاب أيضًا كيف توسعت تشكيلة القضايا التي تعالجها حركات اللاعنف، ولأنَّ الكثير من الأدبيات يركز اليوم على التحولات الديموقراطية؛ لأسباب مفهومة، بما في ذلك تقديم المنح الدراسية مؤخرًا بعد الانتفاضات العربية، فنحن نتوقع أن نرى المزيد من الدراسات المستقبلية التي تبحث في الحركات المدافعة عن الحقوق الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، إضافة إلى تلك المتعلقة بقضايا دولية مثل المناخ، والصحة العامة، والمساواة الاقتصادية.

أخيرًا، نحن نشهد تطورات جديدة في دراسة حركات اللاعنف، وفي حين لم يزل نهج دراسة الحالة سائدًا، فقد استخدم الباحثون في هذا الكتاب وفي أماكن أخرى منهجيات مقارنة وتحليلات كمية، ودراسات (البيانات الضخمة)؛ من أجل فهم أفضل لحركات اللاعنف (ظهورها، وإستراتيجياتها، ومساراتها، ونتائجها).

إنَّها لحظة رائعة أن ينهمكَ المرء في دراسة اللاعنف، بوصفه حقلًا انبثق من مجال مختلف عن دراسات السلام أو دراسات الحركات الاجتماعية، رغم أنه يأخذ من تلك الحقول ويُكمِلها، فنحن نشجع الباحثين، والطلاب، والناشطين جميعًا على أن يفكروا في اللاعنف بطريقة ناقدة ومبدعة (سواء من حيث النظرية أو التطبيق) خلال متابعة دراساتهم وبحوثهم في هذا الموضوع مستقبلًا، ونتطلَّع قُدُمًا لتطوير المزيد من التباين والحوار في هذا الحقل.